

أنديميون بجون كيتس

بقلم: د. نظمي لوقا

١ - حياته

في شهر أكتوبر - وقيل في شهر يونيه - من سنة ١٧٩٥ ولد جون كيتس في مدينة لندن . فهو بهذا أصغر من لورد بايرون بسبع سنين ، وأصغر بثلاث سنين من شيلي ، وفي مثل عمر توماس كارلايل وليس أكبر سنا بكثير من لورد تنيسون وتشارلز ديكنز .

وفي سنة مولده - سنة ١٧٩٥ - كان عهد الارهاب قد آذن بانتهاه في فرنسا ، وكان فجر عهد نابليون يوشك أن ييزغ هناك . أما في لندن فالحياة كانت جارية على منوالها المعهود من قبل دون تغيير يستحق الذكر . وأما ميدان الشعر الانجليزي فلم يكن فيه اسم يعلو على اسم بيرنز وكاوبر .

ومن دلائل نشأته في أسرة مغمورة ذلك الاختلاف في تاريخ مولده ، فالكثرة على أنه مولود في أواخر أكتوبر - في التاسع والعشرين منه على قول ، وفي الحادى والثلاثين منه على قول آخر - في حين نجد صديقه الحميم الأديب اللامع لاى هنت

يقطع بأنه ولد في يوم من أيام شهر يونيه بغير تحديد . ولم يصل المحققون الى التثبت من أرومته فلقب كيتس شائع بين أهالى جنوب إنجلترا . وكان توماس هاردى يذهب الى أن شجرة هذه الأسرة تمتد جذورها الى ناحية دورست .. ومهما يكن من تباين الأقوال في أرومته فتوماس كيتس يبدو لنا في اطار لندنى . وتقع العين منه أول ما تقع على شاب صغير السن سريع البديهة مهذب الشمائل ميسور الحال وليس له اهتمام بالأدب . وتوماس كيتس والد شاعرنا ، ولا بد لنا في هذا المقام من كلمة عن حياته لما لها من تأثير على حياة ابنه النابه .

كان توماس كيتس من أصحاب الحرف ، يمارس تطهير الخيول وتدريبها . وهى حرفة نافقة فى ذلك العصر الذى كان الجواد فيه عسبا رئيسيا للحياة الاجتماعية فى لندن . وعمل الرجل مديرا لحظائر خيول المركبات المملوكة لمؤسسة « سوان وهوب » وكان فى وسعك أن تعهد الى هذه المؤسسة بالعناية بجوادك الخاص ان شئت ، ولك أيضا أن تستأجر

منها ماتشاء من الخيول لمركبتك أولركوبك بالساعة أو باليوم . فهذه المؤسسة اذن أشبه فى أيامنا هذه بتلك « الجراجات » التى تصلح سيارات الناس أو تأويها وتملك سيارات يستأجرها من يشاء .

وكان موقع الحظائر فى مكان يدعى «فينسبيورى بافمنت» قريبا من وسط مدينة لندن ، وبذلك كان عملاؤها من رجال المال والأعمال هناك . وقد جمع المالك الأصلي لهذه الحظائر - واسمه جون جننجز - ثروة تقدر بمعدلات وقتنا الحاضر بنحو مائة ألف جنيه أو مايزيد عليها . وقد استطاع مدير حظائره توماس كيتس أن يغرى ابنته فرانسس جننجز بالزواج منه فى سنة ١٧٩٤ ، وكان بينهما ملحقا بمبنى الحظائر .

ويصف العارفون السيدة فرانسس بأنها امرأة ذات حيوية فى طباعها وحركاتها . وقد ولدت لتوماس كيتس خمسة أطفال ، أكبرهم شاعرنا جون كيتس . ثم جورج كيتس المولود فى سنة ١٧٩٧ ، ثم توم كيتس المولود فى سنة ١٧٩٩ . وقد مات جون فى إيطاليا ، ومات جورج فى أمريكا . ومات طفل ولد بعد ذلك وهو فى الهند . ثم ولدت الصغرى فرانسس مارى فى سنة ١٨٠٣ وقد عمرت بعد وفاة سائر اخوتها وتزوجت سيدا اسبانيا يدعى لانوس ، ودفنت فى مدريد .

ولم تخل طفولة جون كيتس من أحداث عصيبة ، منها على وجه الخصوص وفاة والده توماس كيتس على حين غرة : ألقاه جواده - وهو المدرب الحصيف - عن ظهره عند عودته الى البيت ذات ليلة من لىالى شهر أبريل سنة ١٨٠٤ ولجون من العمر يومئذ أقل من تسع سنين . ولم تجشم والدته الثرية نفسها عناء الانتظار طويلا ، فلم يكد يجف تراب قبره حتى تزوجت رجلا من رجال

الأعمال اسمه « وليم رولنجز » . ويبدو أن هذا الزوج الثانى نقل حظائر « سوان وهوب » الى ملكيته الخاصة . ثم تمخض ذلك الزواج السريع عن فشل سريع أيضا فيما يقال . ومهما يكن من نجاحه أو فشله فقد انتقل الأطفال - بارادة أمهم أو رغم ارادتها - ليعيشوا مع جدتهم لأهمهم مسز جننجز فى « ادموتون » وهى يومئذ قرية تقع شمالى لندن . ولم يلبث جدهم مستر جننجز العجوز أن مات فى شهر مارس سنة ١٨٠٥ .

وفى الفترة التالية تقاذفت تيارات الحياة والدة جون على غير هدى ، وضربت فى مسالكها كل مضرب ، وآبت آخر الأمر الى بيت أسرتها فى ادموتون حيث وافتها منيتها فى سنة ١٨١٠ والفتى جون لما يبلغ من العمر تمام الخامسة عشر ، وانتقلت الوصاية القانونية على شئونهم المالية الى عدد من الأوصياء . وماتت الجدة مسز جننجز فى شهر ديسمبر سنة ١٨١٤ ، وكانت جدة ممتازة تردد الثناء على سجاياها فى قصيدة أو قصيدتين من أشعار حفيدها .

ومهما يكن من أمر هذه الكوارث ، فليس من الحصافة أن نبالغ فى تأثيرها على أجواء الطفولة والصبا الباكر ، لأن الصغار قلما يتوقفون فى العادة عند الشعور الأول بالنوائب الفادحة متى توفرت لهم أسباب الاستمرار فى حياتهم النامية الحاملة التى تتمثل الواقع تمثلا معقدا لتغذوبه عالمها الخاص وكان الأطفال من آل كيتس بعيدين عن التأثير من حيث احتياجاتهم وراحتهم الشخصية بكل تلك الأحداث . ، فسرعان ما هضمت حيوتهم حداثتها وجرفت فى تيارها الملاهى ، ومما ذلل تلك الصعاب الى مدى كبير أن جدهم مستر جننجز كان قد وفر

لهم حاجاتهم المادية كلها تقريباً في وصيته . وكان البيت ناعماً بالرخاء واليسر ، فالأثاث ضخيم كثير ، والطعام دسم وفير ، والموارد المالية تكفي الالتزامات .

فاذا انتقلنا من العناصر المادية والأسرية لتلك النشأة الى العناصر الثقافية والفنية فلا نحسب أننا على يقين من توفر مستوى خاص من هذين الجانبين اللهم الا مسألة واحدة كانت فرانسيس كيتس والدة هؤلاء الأطفال حريصة عليها طامحة اليها ، الا وهي أن يتلقى أطفالها تعليمهم في مدرسة هارو التي لا تبعد عن مقر الأسرة كثيراً ، وكانت شهرتها المديونية قد ذاعت واستقرت ، وكانت نفقات التعليم فيها باهظة ، الا أن الظروف لم تسعف بتحقيق هذا الطموح الاجتماعي الثقافي ، فذهب جون وجورج ثم توم كيتس الى مدرسة أخرى أكثر تواضعاً كان خالان لهم قد تعلم فيها من قبل ، وقد اختفت هذه المدرسة من الوجود منذ زمن بعيد لأن امتداد الخطوط الحديدية تتطلب هدمها والخوض في موضعها ، بيد أن شهرتها ظلت قائمة في التاريخ لأن جون كيتس تلقى علومه فيها ! وكانت هذه المدرسة قد تأسست في سنة ١٧٨٦ في انفيلد في بيت ريفي عتيق تحيط به الحدائق المترامية والمراعى الفساح ، وكان عدد طلبتها - وكلهم مقيمون بها اقامة داخلية كاملة - يتراوح بين سبعين وثمانين طالبا . وناظرها لذلك الحين رجل ذكي الفؤاد اسمه جون كلارك ، لا يحصر اهتمامه في شؤون التعليم ورعاية تلاميذه فحسب ، بل يتابع الحياة الأدبية الجارية ، ويتابع تقدم العلوم ومكتشفاتها ، وتيارات السياسة ، ويعتبر التعليم والترفية فناً رفيعاً لخلق رجال يحذقون ممارسة حريتهم على أساس عقلى حصيف .

وفيما بين سنتي ١٨٠٣ و ١٨١٠ أو ١٨١١ - وهي الفترة المعتادة للتعليم الثانوى في ذلك العهد - ظل جون كيتس طالباً داخلياً في مدرسة مستر كلارك . وقبل أن نخوض في جو دراسته هناك يحسن أن نعود الى موضوع أشرنا اليه من قبل ، لما كان له من أثر بعيد في حياة جون كيتس حتى النهاية ، ونعني بذلك أن وصية مستر جننجز جد جون كيتس لأمه كفلت له الأمان هو واخوته من الفاقة والعوز ، وقد زاد هذا الضمان بما أضيف اليه بموجب وصية الجدة مسز جننجز . وما كان لهؤلاء الصغار أن يدروا شيئاً عن أسعار الأوراق المالية وعمليات المقاصة والبيع والشراء وأسعار الشراء وأسعار القطع ، بيد أنهم كانوا يعلسون أن مقاليد هذا كله بيد أحد الوصيين عليهما وهو مستر ريتشارد آبى ، أما الوصى الآخر فاخفى أثره .

ومستر آبى هذا رجل من أبناء قرية مسز جننجز في يوركشاير وقد أصبح تاجراً من أكبر تجار الشاي في لندن وجمع ثروة كبيرة وصار له دخل ضخم واشتهر بحفاظه على شرف التجارة وسمعتها وصار يجود بوقته وهباته على الأعمال الخيرية . وهو بطبيعة وقاره وطباعه وأخلاقه البورجوازية أبعد ما يكون عن تفهم مزاج شاعر شاب مثل جون كيتس . وقد اعتبر هذه المهمة بلا مراء مفارقة ساخرة من أكبر مفارقات الحياة . وما من شك أيضاً في أن جون كيتسلقى عناء شديداً في التفاهم مع الوصى عليه .

وننتقل الآن الى جو المدرسة في انفيلد فنجد زملاء جون كيتس هناك يجمعون على أنه لم يكن معروفاً هناك بالتفوق في شيء من الأشياء سوى المشاكسة ، فكان يتحرش باخوانه جميعاً ، ولا

يعنى من مشاكساته أحد حتى شقيقه جورج الذى كان دائما - بصرف النظر عن رابطة الدم - من أقرب أصدقائه الى نفسه ! بيد أن هذا لم يحل دون محبة التلاميذ اياه على وجه العموم ..

وكانت المواد التى تدرس فى أنفيلد هى التاريخ على النحو الذى كان يدرس به حينئذ ، والجغرافيا والحسابات ، والنحو ، وشئ يسير من اللاتينية والفرنسية وما الى هذا . الا أن اهتمامه بالرياضة البدنية وجميع الألعاب التى تحتاج الى نشاط كان أشد بكثير من اهتمامه بما يلقى فى قاعات الدرس أما الكتب فكان يألف منها ما يعمر رفوف مكتبة المدرسة أكثر مما يألف الكتب التى تشرح المقررات الدراسية . ولعل السر فى مودة زملائه له مرجعها الى حد كبير الى جمال طلعه الخارق وحبه الشديد للمزاح والضحك . فكان أكبر الظن به أنه لن يفلح فى مهنة تحتاج الى العلم والاجتهاد ذهنى ، بل سيكون غالبا من البارزين فى السلك العسكرى أو البحرى ، ولا سيما أن خالا من أخواله كان مثله الأعلى ، وهذا الخال كان من رجال البحر .

وفجأة ، وهو يناهز الرابعة عشرة من عمره اشتد ميله الى الاطلاع وهجر الملاعب الى المكتبة نهائيا ، وانكب على القراءة بنهم عظيم ، موليا الميثولوجيا الاغريقية أكبر اهتمامه ، وشرع يترجم انياذه فيرجيل الى الانجليزية نثرا ، وكان من وراء هذا التحول الحاسم فى حياة الطالب چون كيتس تأثير قوى لشاب مثقف قوى الشخصية أدخله فى فلك جاذبيته العقلية والخلقية كما ادخل عدد آخر من زملاء چون كيتس ذوى المواهب الفطرية أحدهم ادوارد كاوبر الذى صار مخترعا وسجل له تاريخ الطباعة تحسينات كبيرة فى آلاتها الفنية ، ومنهم أيضا

ادوارد هولمز الذى صار من أحسن النقاد والمعلقين الموسيقيين فى زمنه ووضع أول ترجمة بالانجليزية لحياة موزار . وهذا الشاب ذو الأثر العظيم فى هؤلاء الطلاب النابهين والذى ابتعث كوامن غفولهم الفتية هو تشالز كلارك ابن مستر چون كلارك ناظر المدرسة . واليه وجه چون كيتس الخطاب فى إحدى قصائده فيما بعد قائلا : « ماذا كنت عسيا أن أمسى لو لم تقع عليك عيناى قط ؟ » فقد كان تشالز كلارك الشاب شديد العطف على چون كيتس ومحضه خالص وده ولم يتردد فى ابداء اعجابه به وبمواهبه .

وفى العام الخامس عشر من عمره ظهرت نتائج هذا التحول ، فاذا چون كيتس لا يشارك فى المسابقات الرياضية ويظفر بجميع الجوائز العلمية فى المدرسة .

وفى ختام سنة ١٨١٠ بعث به الوصى عليه الى جراح فى قرية ادموتتون ليتدرب على يده ، ولكنه لبث مواظبا على الاطلاع والاهتمام بالأدب ، واستمر يتردد على مثقفه الشاب ابن ناظر المدرسة .

وما من شك فى أن الوصى عليه انما وجهه الى دراسة الطب والجراحة عن اقتناع بأن هذه المهنة المحترمة المربحة خير مستقبل يرصاه ضميره . ولكن عفريت الأدب كان قد خرج من القمقم وسيطر على عقل چون كيتس فلم تتصل الأسباب بينه وبين مهنته الجديدة . وما وافت سنة ١٨١٤ حتى كان قد وصل الخلاف بينه وبين معلمه الجراح الى درجة الشجار والتلاحى ، فتركه وترك له القرية ورحل ليعيش فى لندن . الا أن صلته بالطب لم تنقطع ، لأن الوصى عليه لم يقنط من تخريجيه طبيا أو صيدليا على الأقل ، فدخل مستشفى القديس

توماس ليدرس هناك الطب والصيدلة ، واجتهد في بداية الأمر ونجح في الامتحانات المعقودة للطلاب وحصل على اجازة التخرج في صيف سنة ١٨١٦ مع الترخيص له بممارسة الصيدلة .

ولكن هذا النجاح كان أشبه بالنسج الظاهري الذي تختفي تحته تيارات أخرى عنيفة . ولا بد للحديث عن هذه التيارات من العودة الى علاقته بابن ناظر مدرسته . ففي مدة عمله لدى الجراح في ادمونتون كان يقترض من مثقفيه الشاب الكتب بلا انقطاع . وعن طريق هذا الشاب آدم من چون كيتس قراءة صحيفة «الاجزامير» الأدبية اللندنية التي كانت تطالب بوجوه شتى من الاصلاح بذلاقة وبلاغة آسرة .

وبتأثير تشارلز كلارك أيضا بدأ يتذوق موزار - وكان كلارك عازفا بارعا على البيانو ، وأخيرا طلب چون كيتس من أستاذه أن يقرضه أعظم كتب آدموند سبنسر وهو قصيدته الكبرى « الملكة الجنية » ، فدهش الشاب لهذا الطلب ، ودهش له أبواه . فما كان أحد ليتوقع أن يتجه چون كيتس الشاب الى الاهتمام الجدى بالشعر ، وسرعان ماتين التجاوب الشديد بين الفتى وتلك القصيدة الكبرى . وشعر أستاذه بسرور بالغ لهذا التأثير انحاسم . وصارت معظم أحاديثهما تدور بعد ذلك حول الشعر وقضاياها . وتولى الأستاذ شرح دقائق العروض وأنواعه المختلفة مع نماذج وتعليقات ذكية على قصائد المشاهير من الشعراء الأحياء .

وبعد رحيل جون كيتس الى لندن وتخرجه صيدليا صار من الجلى لجميع اخوته وأصحابه وزملائه أن الشعر لا العقاقير ميدانه المنتظر . وكانت

صدمة مستر آبي هائله حين عرض على چون كيتس أن يمول له شراء صيدلية وعيادة طبيب في توتنهام فاذا بالشاب يجابهه بالرفض ، وكانت ثلاثة الاثافي عندما قال له بهدوء وثبات أنه يعرض عن الطب والصيدلة كى يفرغ لقرض الشعر !

وكانت هذه « الموقعة الحاسمة » بينه وبين الوصى عليه في ختام سنة ١٨١٦ ، وكان جون قد نظم بالفعل قدرا لا يستهان به من الأشعار منذ بدأ محاولته الأولى في سنة ١٨١٣ محاكيا سبنسر . وظلت أشعاره الأولى محاولات لمحاكاة مشاهير الشعراء . وكان تشارلز كلارك شديد الاعجاب بالكتاب لاي هنت رئيس تحرير صحيفة الاجزامير ويرى فيه بطلا من أبطال الحرية السياسية والأدب معا ومن دعاة التجديد . ومن أشد المنادين بالعودة الى الطبيعة حماسة . وقد وجدت هذه الدعاوى كلها صدى عظيما لدى چون كيتس . ونظم قصيدة في تحية لاي هنت بمناسبة خروجه من السجن حيث قضى مدة عقوبة عن تهمة سياسية ، هى التهجم والقذف فى حق الوصى على عرش انجلترا .. وكان خروج لاي هنت من السجن فى ٣ فبراير سنة ١٨١٥ ، وقد جاءت قصيدة چون كيتس شديدة الحرارة فى حماسها حتى لقد ظن به الناس أنه يريد لو شارك فى تهمة لاي هنت ولقى مثل عقابه ، وقد تولى كلارك على أثر ذلك تقديمه الى لاي هنت ، فكان ذلك - على حد تعبير كيتس - الخطوة الحاسمة فى حياته الأدبية . ويرجح أن ذلك اللقاء الأول تم فى منتصف شهر أكتوبر سنة ١٨١٦ فى المقر الريفى للكتاب الشهير . وقد أحس لاي هنت بميل شديد الى كيتس منذ الوهلة الأولى وفتح له بيته وأفسح لأشعاره مكانا فى مجلته المرموقة .

وفى رحاب لاي هنت خالط چون كيتس نخبه
من ألمع أدباء عصره ،على رأسهم ولا مرء ذلك
الرسام والناقد العبرى وليم هازليت والشاعر
شيللى القادم من مقاطعة سسيكى الذى تناقل الناس
قصيدته الالحادية «الملكة ماب» والشاعر الشاب
رينولدز الذى أثارت أشعاره اعجاب اللورد بايرون
وفوق هذا الهرم الشامخ يتربع على القمة - فى
اعتبار كيتس - معبوده الكامل لاي هنت نفسه .

ولم يلبث هنت أن كتب فى مجلته - فى العدد
الصادر بتاريخ أول ديسمبر سنة ١٨١٦ - مقالا
أدهش قراءه بما فيه من نبوءات أدبية بعنوان
«شعراء وشبان» أبرز فيه شاعرين صاعدين
واعدين بأعظم نبوغ وهما شيللى وكيتس ، وذكر
معهما شاعرا ثالثا قد ينتظر منه شئ كثير وهو
رينولدز . وفى هذا المقال أورد هنت على سبيل
الاستشهاد مقطوعة من أحدث مقطوعات كيتس
عنوانها : « بمناسبة نظرة أولى فى ترجمة تشابسان
لأشعار هومر » - وكانت هذه الترجمة قدوصلت
الى يد كيتس عن طريق بعض أصدقاء هنت على
سبيل العارية - والحق أن هذه المقطوعة كانت ولم
تزل من أنبل وأصفى أشعار كيتس ، فجاءت حجة
ناهضة على صدق تلك النبوءة الضخمة .

وتوالت قصائد كيتس المنشورة فى «الأجزامينر»
وفى سنه ١٨١٧ ساعدت هذه الندوة فى نشر هذه
القصائد فى ديوان باسم الشاعر الشاب لم يقبل عليه
القراء كثيرا ، ولا أهتم به النقاد كثيرا ، ولكن لاي
هنت كتب عنه فى مجلته كتابه مستفيضه تبهت اليه
الأذهان ودفعت عنه غوائل النسيان ، بما أسهب
من بيان خصائص «الشعر الجديد» وطبيعته
الحقيقية والنهضة التى يمثلها هذا الاديوان خير
تمثيل .

وفى سنة ١٨١٧ ارتحل جون كيتس عن لندن
ودواثرها الأدبية وزحامها حيث اعتزل الناس
فى جزيرة وايت وشرع ينظم قصيدته الكبرى
«انديميون» بيد أنه غادر الجزيرة قبل الانتهاء من
نظمها الى كنتربورى مع أخيه الأصغر توم ، ومن
هناك انتقل الى اكسفورد وقد وصل فى نظم
قصيدته الى الباب الثالث منها . وفى عيد الميلاد
التالى حل محل رينولدز ناقدًا مسرحيا فى صحيفة
التشامبيون . وما أن حل الربيع حتى استولى
عليه نشاط شعرى جارف بحيث كان ينظم القصيدة
فى يوم واحد ، ويتم فى كل يوم تقريبا قصيدة .
ومن قصائد هذه المرحلة قصيدته عن « النيل » .
وفكر بالاشتراك مع رينولدز فى ترجمة اقايص
بوكاشيو عن الايطالية . وهذا أساس قصيدته
«ايزابيلا» . وفى سنة ١٨١٨ نشرت انديميون ،
والأصل الأسطورى لها حكاية أنديميون مع آلهة
القمر ، بيد أنه خلطها بأساطير أخرى وأحداث
من ابتكاره . وسر قوتها فى جموح خياله المجنح
الغريب ، ولكن ذلك الجموح سيطر على الشاعر
كما يسيطر على الجواد الجامح على راكبه فى مواضع
كثيرة من القصيدة .

وفى صيف ذلك العام نفسه (سنة ١٨١٨) قام
برحلة فى شمال انجلترا أصيب منها باعياء شديد
وأصيب باحتقان فى حنجرتة فنصحها الطبيب بالعودة
فورا الى لندن . وكانت هذه العلة مقدمة داء السل
الذى نزل به بعد ذلك وقضى عليه . وفى عدد
أغسطس خصصت مجلة «بلاكوود» الأدبية عددها
كله لمهاجمة كيتس وشعره الجديد . وفى عدد
سبتمبر هاجمته مجلة «كوارترلى» فى عرضها
وتعليقها على قصيدته «انديميون» بيد أنه تلقى
الهجوم بصدر رحب وهدوء رزين وكان مشغولا

فى الغالب بحالة توم الصحية وتطوراتها المنذرة بالسوء ، وتفرغ لتمريضه بحنان شديد الى أن مات توم فى أوائل ديسمبر ، فانتقل چون كيتس الى هامستيد لينظم قصيدته « هيريون » .

وأعزم جون كيتس فى تلك الفترة بفتاة حسناء ألهمت عواطفه وشاعريته وأخصبت انتاجه بيد أن غرامه الملهب أنهك جسده . والى هذه المرحلة ندين بعدد من أبدع قصائده ، ومنها قصيدة « الى عندليب » التى نظمها فى أواخر ابريل سنة ١٨١٩ . وفى أوائل أكتوبر عاد چون كيتس الى لندن وقد اعتزم البحث عن عمل فى الصحافة.. واضطربت أحواله العاطفية مرة أخرى وعاد الاتصال بمحبوبته العاتية الى أن أصيب فى ٣ فبراير سنة ١٨٢٠ بأول نوبة واضحة لمرض السل ولم تكف عنه وطأته الى أن مات وهو يستشفى فى ايطاليا فى ٢٣ فبراير سنة ١٨٢١ .

٢ - أدبه

أبرز مايجبه القارىء من شخصية كيتس وأعماله الأدبية ما تتميز به من شباب أتى بالمعجزات وابترسه حصاد المنون حينما وصل الى نضوجه الفنى السابق لأوانه ، فهو لم يعمر أكثر من خمسة وعشرين سنة الا قليلا ، ومن عجب انه انتقل انتقالا مفاجئا من طور المحاولات الواعدة الى طور الابداع الخلاق الذى منح العالم نخبة من الروائع . ولذا لاتنقسم حياته الأدبية الا الى طرفين لاوسط بينهما : بداية غضة أعقبتها أستاذية متمكنة . وما من شئ يسترعى انتباه دارس أشعاره الى جانب الأصالة وقوة الطبع والموهبة الفنية الخارقة .

ففى بيئة اجتماعية خالية من كل ما يبشر بعبادة

الجمال ، بل هى أقرب الى خلق هذه العبادة أو على أقل القليل الى الامتناع عن تغذيتها الغذاء الذى يتيح لها النماء والازدهار ، ومع الحرمان من الثقافة العالية التى تتيحها الجامعة ، بل قصارى الأمر أن استاذا صديقا تولى مهمة التوجيه والارشاد الى مواطن الجمال فى بعض روائع الأدب ، اذا بموهبة جبارة تتدفق ، واذا بعبادة متدلّهة بحب الجمال تتقد براكينها وتتفجر ..

ويرجع التدله بالجمال عند كيتس الى رغبة فطرية غريزية ركبت فى طبيعة ذات حساسية شديدة ولها فى الوقت نفسه جانبها الذهنى البارز . فلديه استعداد فطرى لاجتناء الحصاد الفكرى الوفير من تجارب الحياة العارضة والشهوات والرغائب التى تمر بغيره من الناس خلوا من البعد العقلى والحصافة الرصينة . وله فى القراءة نهم الى المعرفة موصول بحواسه وانفعالاته ولققات ذهنه معا . وهكذا عرف تراث الاغريق والثقافة الوثنية والفن القديم ، وأعمل فى تصوراتها مخيلته المجنحة، الى أن أشرب العهد الهلينى الذهبى حتى النخاع من غير أن يتحجر خياله بالتفصيلات الدراسية الجامدة . فحصيلته من ذلك كله صاغها الهامه العبقري لا التحصيل الحرفى الضيق . وقرأ أدباء عصر النهضة ، ودأب على قراءة سبنسر وتشابمان وملتون . أما تأثير شيكسبير عليه فلا يكاد يعد له تأثير آخر ، كما تشهد بذلك خطابه الخاصة . وأما وردزورث فكان أحظى كتاب زمنه باعجابه ، وان كان تأثير لاى هنت عليه لا يعد له تأثير فى مجرى حياته ولا سيما فى المرحلة الأولى من انتاجه الأدبى .

ومن شتى هذه العناصر استطاع كيتس أن يقيم لنفسه ذخيرة شخصية من الخواطر والأفكار

وكان طموحه الثقافى شامخا ، ولديه وعى بمدى ماينقص طبيعته الخاصة ولذا فقد صمم على أن تكون له فلسفته المكتسبة ، أما الدين فقد اتخذ لديه صورته المحددة النهائية وهو لم يزل بعد فى سن مبكرة . فصار دينه الخاص عبادة الجمال . بيد أنه جعل من هذه العبادة مذهبا بارز المعالم، الجمال فيه هو الحقيقة القصوى . والمخيلة هى التى تكتشف هذه الحقيقة القصوى ، لا العقل ! فالقياس المنطقى أو التفكير العلمى بوسائله المعروفة من تحليل وتشريح ان هما الا أداتان للمعرفة أقل مرتبة بكثير من المخيلة التى تكتشف أفانين الجمال .. ومن السهل ان تتخذ هذه المثالية نبرة تصوفية كما يتضح ذلك فى بعض مواضع من « أنديميون » ، ففيها تعبيرات كثيرة ذات قيمة رمزية . وما من شك أن ديانة الجمال هذه أقرب الى الوثنية المتحررة وان لم تكن خالية كل الخلو من الاكتراث بالمبادئ الأخلاقية كما هو الشأن بالنسبة للمدارس الجمالية المتطرفة التى ستظهر فى أواخر القرن التاسع عشر ، ففى كيتس دائما رهافة احساس ورقة مشاعر تتم على رواسب ذات عبق تظهرى « بيوريتانى » لاشك فيه بقى له من نشأته العائلية الأولى ، ولئن أضعفت هذا الأثر اتصالاته بندوق لاى هنت وأصحابه الا أن هذه الاتصالات لم تتمكن من طمس هذه السمة فيه كل الطمس . ولذا يمكن القول أن عزمه كان معقودا على خدمة قضية التقدم الخلقى التى يؤمن بها عن طريق موهبته الشعرية . ولاينبغى أن يحملنا على اغفال هذا الجانب لديه ماتفيض به اشعاره أحيانا من تشاؤم وعدم تقيد بالمسؤولية وافتتان بلذات الحس . والى جانب هذه السمات نجد فى ثقافة كيتس النظامية نقصا ناجما عن إبتسار حياته الدراسية

مع فقر فى التجارب . ولو امتد به العمر الى سن النضوج لاختفى فى الغالب معظم ما فى أدبه من غموض فكرى وتشتت . ومن الانصاف له أن نقول أن قيمته الكبرى ليست فى أفكاره بل فى شاعريته فجون كيتس قبل كل شئ رجل أحاسيس ، تسيطر عليه معطيات حواسه ، ونشاطه الذهنى نفسه يستثير لديه ذخيرة غنية من التطورات والتخيلات والصور الحسية بهدى من عبقريته يستلهم الاختيار الموفق من بينها ، فيأتى شعره فياضا بالمشاعر والعواطف محركا للنفس . فشعره صلاة حارة وشوق الى الجمال ، ولكنه ليس جمالا عقليا أو ذهنيا مجردا كما هو الحال عند شيللى ، بل هو الجمال الذى يفتن الحواس ويسكرها .

فما أيسر أن يتبين المرء فى شعره جميع درجات السلم الموسيقى للاحاساسات وقد بعث أنغامها ما فى طبيعته من خصوبة ونعومة وتعلق بالحسن والحس من غير أن يشاب ذلك بشئ يوحى بالبهيمية أو حب العنف ، وما أقرببه فى هذا الى حكمة الوثنية فى عصرها الذهبى . تلك الحكمة التى تبعد فى كل قطرة من خمر الحواس غذاء مناسباً للتفكير الشاعرى ، فاذا باللذة الحسية وقد انقلبت معراجا روحيا الى الفرح بالحياة ، واذا هذا الفرح بالحياة وقد شعشعه الافتتان بالجمال . فللعاطفة نصيبها الكبير فى مأدبة الحواس ، فى حالى اللذة المتسامية والألم الوجدانى المحموم .

بيد أن هذا البعد الروحى العميق لا يكاد يوجد الا فى روائعه الكبرى وفى أواخر أعماله . أما قصائده الأولى فالحب فيها ذو طاقة خارجية فى الغالب وتشوبه اللفهة والرخاوة المتسعة . وهذا دليل قاطع على تطوره السريع المثير للعجب ، فكأنما كان يرشده روح جينى أو تسدد خطاه غريزة معصومة

من الخطأ ، ففي البداية كانت جميع نقائص طبيعته النفسية واضحة ولذا جاءت « انديميون » على ما فيها من فقرات تسترعى الإعجاب-نموذجا لأخطاء عبقرية غير مدربة ولا متمرسه بتربية ثقافية منظمة ، وما أكثر ما تخطئ العبقرية فى هذه الحالة ادراك المفهوم الجمالى الصائب ، ومن كانت هذه بدايته يخشى عليه غالبا من التورط فى مزيد من الضلالات الجمالية ، وما أبعد فى عمله عن شاطئ الأمان ، لأن حماسة الشاعر العاطفية تضلله وتزيد فى خروج زمام سيطرته على تصورات من يده ، فاذا ببصره الزائع يوجه اهتمامه الى اشتات من التفصيلات غير الجوهرية ويعمى بذلك عن الصورة انكلىة المتكاملة ، ويشيع فى عمله كله جو حار ثقيل الوطأة تتصاعد منه أبخرة تعوق وضوح الرؤية وتبعث شيطان الملل والسأم فى القارئ وهو أعدى أعداء العمل الفنى ، لأن القارئ يشعر فى هذه الحالة أن الشاعر يغرب به فى متاهات الصحراء وراء سراب خادع . ومع هذا نلمس فى انديميون - وهى ذلك العمل المجهد للقارئ المخيب لآماله - حماسة الشباب المتفجر بأصالة يغلفها الضباب ، أصالة تترك رغم كل شيء أثرا لا يمحي فى احاسان القارئ الحصيف ..

بيد أن هذا التدفق غير المنظم الذى غمر عبقرية كيتس الفنية وكاد يطمسها فى « انديميون » لم يطل أمده لحسن الحظ ، واذا بسيطرته على الرؤية الفنية فى أعماله تصل الى درجة الاستناذية الواثقة من قدرتها . ولكن هذا التحول السريع لم يحدث فجأة ، ففي قصيدته « لاميا » نلمس أثر هذه المرحلة الانتقالية ، على صورة عثرات تحمل سمات المرحلة الأولى .

ولا يفوتنا أن نلفت الأذهان الى أن مرحلة النضوج

الفنى عنده ليست فى مستوى واحد ، ففي أعمال هذه المرحلة نلاحظ التنميق والبهرجة مثلا فى « عشية سانت آجنس » و « ايزابلا » وبذلك نخلص الى القول بأن حصيلة كيتس من أفضل أشعاره وأكملها فنا لا تتجاوز مجموعة صغيرة الحجم جدا ، أهم ما فيها النص الأصيل الأول من « هيريون » و « الحسناء التى لا ترحم » ومقطوعاته فى الفترة الأخيرة من عمره وهى من أجمل مقطوعات الشعر فى العالم عموما .

وهو فى هذه الروائع القليلة العدد يصل الى ذروة الجمال المصفى ، أما « هيريون » فلمحة يبارى فيها كيتس چون ملتون سباراة الند للند ، ويجعل موضوعها الثورات التى جرت فى عالم الأرباب كما روتها لنا أساطير الميثولوجيا الوثنية .. أما ملتون فى فردوسه المفقود وفردوسه المستعاد فيروى لنا ثورة الشيطان وسقوط آدم كما تناولتها الكتب المقدسة عند المسيحيين . ولا يسعنا أن نكرر على كيتس أن محاولته كانت أحفل بالجرأة ومزائق الخطر ، ذلك أن شخصيات ملحمة أشد صرامة وصلابة وأبعد عن النمط البشرى من شخصيات ملتون . بيد أن خياله ليس أدنى مرتبة من خيال سابقه العملاق ، وقدرته على التصوير التشكيلى الذى يروع الحواس ويأسر اللب لا تقل عن قدرة ملتون أيضا بحال من الأحوال بما تقدمه من صور جبارة لذلك العالم البدائى ..

والحق أن روائع المرحلة الناضجة من أعمال كيتس تستولى على ألبانيا بما فى لغتها من توهج وتأللق كأنها كنوز من جواهر الكلام ، ولا نلمس فيها بريق الزخرف السطحي بل نورانية اللائىء الحقيقية

لن يجد أشد النقاد تدقيقا ما يوجهه الى انديميون أكثر مما اعترف به چون كيتس نفسه فى مقدمته الثرية لتلك القصيدة ، مما يدل على «وعى» هذه العبقرية ، وانها منذ البداية كانت أضخم وأثمن مما وفق اليه من النظم فى ذلك الحين ..

ويقول كيتس فى تلك المقدمة : « سرعان ما سيتبين القارئ افتقارا شديدا الى التجربة ، وبعدا عن النضوج ، وسائر النقائص التى تدل على محاولة محمومة أكثر مما تدل على اقتدار واثق راسخ ، فخيال الصبى شئ لا غبار عليه ، وخيال الرجل الناضج لا عيب فيه أيضا ، ولكن ثمت فترة من العمر فيما بين هاتين المرحلتين تغتلى فيها النفس بما تموج به على غير قرار ، والطبع فيها لا ثبات فيه على حال ، وسبيل الحياة فيها غير واضح على نهج ، والطموح فيها يزيغ البصيرة . ومن ثمت تسود العمل ميوعة مقرزة »

ولكن نعت « انديميون » بأنها عمل يثير التقزز فيه افتئات شديد ، وما من شك فى أن الشاعر الصاعد انما أحس التقزز لفرط حبه للكمال وتعلقه بالوصول اليه ، بما فى عبقريته من فطرة صادقة . أما نحن فنرى لها سلاسة الا أنها تفتقر الى « فكرة رئيسية » أو معنى محدد ترمى اليه ، اللهم الا أن نعتبر بحث انديميون عن اللذة فكرة رئيسية كافية لمثل ذلك العمل الطويل . فهى عمل من النوع الزخرفى فى الغالب ، ولا تؤدى تقريبا الى غاية وراء ذلك . فالبناء غير وثيق التركيب ، والاسهاب لا مبرر له الا أن يكون للتدليل على قدرة الشاعر كما يطيل الفرخ الطيران لايصل الى مكان معين بل لمحض التدريب على التحليق .

التى تنبعث من نفاسة تكوينها نفسه ، والصياغة محبوكة لافضول فيها ، والموسيقى لاستقل برنينها فهى دائما تعبير مطابق للصورة المبتغاة أدق المطابقة فالعمل كله وحدة متكاملة بكل عناصره الأخاذة . وهكذا تبلغ الرومانسية الانجليزية قمتها المبدئية فى شعر كيتس وترتفع الى أسنى مدارج الكمال الفنى المقدورة لها ، فحتى هذه المسحة من التشاؤم التى تشيع فى أشعاره أعمق بلا شك وأحفلى بالمعنى من تشاؤم معاصره الشهير لورد بايدون .. لأن تشاؤم كيتس لا ينبع من مأساة محددة مرت بحياته ، بل من احساس أصيل عام بأن أفضل وأقدس ما فى الحياة ، وهو الجمال المحسوس ، لا يمكن الا أن يكون هشاً ضعيفاً قليل البقاء سريع الذبول ، وأشد ما نحس هذا الأسى الذى يكاد يسامت الواقعية بمرارته فى قصيدته عن «الاكتئاب» فكأنما هى ارهاص يذكرنا بمذاق «أزهار الشر» للشاعر الفرنسى بودلير .

بضع مئات من أبيات الشعر حسب هذا الشاعر الرقيق للخلود ، وحسبه كى يحتل مكانة من أرفع المكنانات بين شعراء الانجليز ، وسيظل دائما فى الذؤابة العليا تلك الفئة من الفنانين التشكيليين الذين كانت الكلمة مادة ابداعهم الحصى الشاق المعجز ..

وان العقل المنصف ليحار فى أمر هذا «الاغريقى» المحدث فأى شئ كان حريا ان يجاوز قدرته فى البيان الشعرى الباهر وهو الذى استطاع بما نظمته فى الخامسة والعشرين أن يجبر الناس على مقارنة شعره بما جادت به قريحة ملتون وشكسبير ؟

الا ان موت الشباب لنفاجع ! ولكن ما من موت ادعى للتفجع من منية اخترمت قبل الأوان عبقرية من هذا الطراز الرفيع !

وكان كيتس فى العشرين من عمره يوم نظم
انديميون ، وفى الحادية والعشرين حين كتب تلك
المقدمة «الواعية» التى عبر فيها عن مضاضته لنشر
عمله هذا الذى لا يرتضيه على الناس ، فما كان
أسرع نمو هذا الفتى المذهل !

ان انديميون وثيقة فذة تجتمع فى تكوينها مخايل
هذه العبقرية ونقائصها فى وطاب واحد ، ولكن
ما أحرانا فى هذا المقام بأن نتذكر قول شاعر
عبرى آخر : قول أبى تمام :

واذا رأيت من الهلال نموه

أيقنت أن سيصير بدرا كاملا

فالهلال بشير بالاكتمال فى نوره ، وان لم يكن
قريبا من الكمال بصورته . وكذلك كانت انديميون
ارهاصا بعد ذلك بهيريون واخواتها من المقطوعات
والقصائد العظام ..

وفى مفتتح انديميون نقرأ هذه الأبيات مستهلا
بها كتب قصيدته الأربعة التى يبلغ مجموعها أربعة
آلاف وخمسين بيتا ..

« كل جميل فرحة أبدية ، عذوبته تزداد على
طول المدى ، ولن تصير الى فناء أبدا . بل ستقيم
لنا دوما عريشة ظليلة هادئة نخلد اليها ، وتتيح لنا
نوما عامرا بالأحلام العذاب ، والصحة ، وناعم
الأنفاس .

« ولذا نحن فى كل صباح ننسج شريطا من
الورود والأزاهير ، كى يربطنا بالأرض . على الرغم
من الأسى القانط ، والافتقار القاسى الى الطبائع
النبيلة . وعلى الرغم من الأيام الكالحة المتجهمة ،
ومن سائر الأساليب العليلة الحالكة السواد التى
علينا أن نتخذها فى سعيها على الأرض . اجل ،
بالرغم من هذا كله تنبرى صورة جميلة فتزيج غطاء

الموت عن أرواحنا المكتتبة . كأن تكون تلك
الصورة الحسناء الشمس أو القمر أو الأشجار
العتيقة والشابة التى تنبت العطايا الظليلة للأغنام
ترعاها ، أو تكون فى صورة أزهار برية يحف بها
عالمها الأخضر النضير الذى تعيش فيه . أوجدوا
صافية تقيم لنفسها من فوقها غطاء يحميها من مواسم
القيظ . أو الآجام الملتفة وسط الغابات وقد ازدهرت
فيها ثروة من ورود المسك . وهكذا أيضا تفعل
بنا المقادير العظيمة ، التى تتخيلها للراجلين العظماء
ذوى البأس ، ممن سمعنا أو قرأنا أقاصيصهم
الجميلة . فكل ذلك ينبوع لا يفيض من الشراب
الخالد ، ينصب فى نفوسنا من علباء السماء ..»

حلم سامق لشاعر فى العشرين بالجمال الذى
لا يندثر جمال المشاعر التى تتولد عن الجمال
المحسوس ، وليس هذا الكلام مجرد «فرقة»
يطلقها الشاعر للفت الأنظار اليه ، بل هو وثيقة
ايمان تفيض بها نفسه التى تعبد الجمال وتتجراه.

وكان كيتس قد أغرم بقصة انديميون عاشق
القمر كما تصورها الأساطير الاغريقية ، وفيها هبطت
«سيلين» ربة القمر الى جبل لاثموس لتقبل عاشقها
الأمير الراعى انديميون . وفى بعض روايات
الأسطورة أن الشاب الجميل حظى بعد تلك القبلية
القدسية بنوم أبدي حى يمثل بشبابه الدائم ريبعا
دائما للحياة .

وفى تأويل كيتس للأسطورة يصبح انديميون
روحا هائما ينشد مجالى الجمال حيثما وجدها ،
ويصبح القمر قوة علوية غامضة لها على الأرض
ومخلوقاتها تأثير سحرى فعال .

وقد خشى كيتس أن تكون قصيدته قد قللت
من روعة الأسطورة الاغريقية الأصلية ، واعترف

أغصانا سامقة ممتدة ، تحمل أئنف الثمرات وأئمنها وان لها نظلالا حالكة ذات أغوار بعيدة لاتسبر ،لم تطأها قدم انسان . واذا ما أفلت من رعاية الراعى حمل وسط هذه الأدغال ، فلن يرى بعدها حظائره السعيدة التى تأوى إليها الحملان من اخوته اذا حان المساء »

ثم نقرأ ..

« وفى وسط هذه الخمائل التى تحوطها الغابات ، يقوم مذبح من المرمر ، وعليه اكليل وجدائل من أزهار لما تزل فى أكمامها الناضرة ،وقد راق للندى أن ييسط من حول المذبح أفانين من المروج وينثر فى ثناياها الاقحوان ماين عشية أمس وبكرة هذا الصبح البهيج ، كيما تستقبل أضواء الفجر بالحفاوة والأهازيج وطيب الأريج !..والورد الجبلى أذاع المطر عبيره العبق ، فكان خير ابتسامة تستجيب بها الأرض لابتسامة الشمس الطالعة فى حافة الأفق ، والقبرة انبرت من عئشها هائمة فى هذا الفيض من الجمال ، والينابيع المقرورة تدفقت بين العئشب تلتمس الدفء لنفسها وهى تبعث خيرها النشوان »

وسرعان ما نبصر انديميون :

« هاهو انديميون وقد جاهد حيناً من أنزم من كى يخفى السموم الناخرة التى راحت تمزق ذكرياته وخواطره الواهنة . الا أنه فى نهاية الأمر فقد احساسه بكل شئ ، ولم يعد يبالى ذلك الصمت المفاجىء ، ولا ذلك الهمس الخافت ، ولا تلك العيون المسنة التى أفزعها مايتعرض له من هول ولا النداءات الجارعة ، ولا الأكف المرتجفة ، ولا تنهدات العذارى التى يضمخها الأسى ، وظل فى

فى تواضع غريب بحدود قدرته ، ولكنه كان صادقا فى احساسه «الاغريقى» ، حتى أن شيلى عندما سأله سائل : « كيف تسنى لابن مديراصطبل وصبى جراج أن يحسن فهم هذه الرؤى الاغريقية؟ » أجاب شيلى بلا تردد « لأنه اغريقى الروح »

ولئن كانت الأسطورة اغريقية الروح والمبنى ، فقد كان نسيج القصيدة رومانسيا فى شاعريته بلا مرء ، ولا سيما فى المواضع التى يعبر فيها عن عبادته الوجدانية المتقدمة للملكة ربة الصيد الهة القمر المعروفة باسم سيلين أو باسم ديانا ، وبهذا الاعتبار يكون كيتس نفسه أنديميون أو الأمير الراعى الذى وقع فى حبائل ربة القمر الفضية ولذا نراه فى الكتاب الأول من قصيدته يقول لنا :

« ولذا فانى بسعادة غامرة ، سوف أسطر قصة انديميون . فموسيقى ذلك الاسم فى حد ذاتها تغلغلت فى كيانى ، وكل مشهد رائق فى هذه القصة، يغدو ناضرا أمام ناظرى ، كودياننا اليائعة »

« وكم من آيات أئمنى أن أنظمها ، قبل أن يتوارى الأقحوان وسط الأعشاب النامية ، ولم يزل النحل يطن ويحوم حول أكداس البرسيم والبالزلاء الجميلة ، بحيث أصل الى منتصف حكايتى قبل انقضاء بواكير الربيع . وكم أئمنى ألا يأتى الشتاء الجهم وهى بعيدة عن الختام » .

وهكذا يجعل كيتس من الكتاب الأول كله مدخلا ريفيا يانعا يتعنى فيه بمشاهد الطبيعة الرائعة ، فنقرأ آياتا من هذا الطراز :

« على جوانب وسفوح جبل لاتموس امتدت غابة لفاء . فالأرض الندية هناك تغذو بوفرة هائلة جميع الجذور المختفية تحت الأعشاب ، فتغدو

سباته ، وكأنه لم يخطر من قبل على هذه الأرض،
بل هو أشبه بتمثال انسان من رخام فى سكونه
وجمود أوصاله »

وتدريجا تتمكن اخته « بيونا » من إيقافه من
سباته العميق وقد بددت حرارة بلاغتها اللعنة
الرائنة عليه ، ثم تقوده بحنان :

« الى أن بلغ بهما المطاف حيث تتساقط تلك
الجداول ، بخير رخيم وتدافع لطيف ، فتنصب فى
نهر صاف وفير الماء دفاق ، بلوره الوضاء يضحك
ساخرا فى استحياء من الأشجار من حوله والسماء
وزورق صغير يطفو هناك عن كذب ، يغوص بخفة
ويعلو ثم يهبط ، ويرز مرة أخرى وفيه الشابان،
وكانت بيونا تقوده فى مجرى ذلك الماء ، نحو
جزيرة فى مواجهة الشاطئ ظليلة الأدغال ، وسرعان
ما وصل الزورق بهما الى هناك ، فوجهت بيونا
قياده بخفة ، الى خليج ظليل صافى الماء متمواج
الأديم على ضفته عريشة محبوكة الأغصان ، أحكمت
نسيجها أصابع الصيف الصامته ، وكان من عاداتها
أن تأتى الى صدر هذه العريشة ، رفاق لهوها ، ومعهم
أشغال التطريز ، فيتناشدن ويعزفن ذكريات الأيام
الخوالى .

وليس أقل من ذلك الوصف روعة وجمالا
مانجده فى الكتاب الأول أيضا من أبيات يوجه
فيها الخطاب الى النوم بما فيه من رؤى وأحلام:
« أيها النوم السحري ! أيها الطائر المريح ، الذى
يطيل الجثوم فوق بحر العقل المضطرب ، الى أن
يخفت هديره ويهدأ ثأثره ! أيها الاحتباس الطليق
أيها الحرية السجينة ! يالك من مفتاح عظيم ، يفضى
الى قصور ذهبية ، وفرق غناء ، وعزف عجيبة ،
ونوافير ثرارة ، وأشجار غريبة جديدة ، ومغاور

وكهوف مزرکشة بالاستبرق ، وخلصان تتردد فيها
الأصداء ، يتلاطم فيها الموج ، ويفضضها ضياء
القمر .. »

وابتداء من هذا الموضع من القصة يبدو فى
الواقع أننا نستسلم للنوم والأحلام فاذا حلم من
داخله حلم من داخله حلم تتراءى لأعيننا وانديميون
يقود خطواتنا موغلين فى أراض مجهولة ، الى أن
نشعر - على حد تعبير انديميون - أن :

« نفوسنا القلقة لا يمكن أن تتحمل كل ذلك
الاستمرار الطويل فى التهاب لذة واحدة ، مالم
تستطلع - وان فى توجس - أملا يمكن أن يتجاوز
بها أطياف الحلم »

وبعد ذلك بقليل نجد أنفسنا فى خلوة ذات
جدران من الآس ، وفروعها المعرشة عالية ، والجو
ملآن بما يشبه البخور الخفيف من العزف العذب
والغناء الرخيم الخافت ، فى هذه الخلوة بنصر
شبابا رقيقا نائما ومن فوق رأسه أربع أقحوانات
يتكون منها اكليلة ، وعن كذب يقف عدد من أرباب
الحب « كيوبيد » وهم قائمون على حراسته فى
صمت . ونجد مضاجعنا هناك من الأزاهير الحية ،
أما الخمر فلم يشرب الآلهة القدامى أفخر منها .
وبعد قليل تحمله الملكة فينوس حانية عليه مفتوحة
الذراعين ثم تختفى به ومن ورائها حاشيتها من
الحمام البيض فى أجواز السماء . ويفيق انديميون
ليجد نفسه هابطا من عليين الى عريشة من الياسمين
تناثرت فيها جدائل من نبات ذهبى ، فيلقى بنفسه
فوق خميلة غزيرة العشب من ذلك النبات الباهر ،
ثم :

« يمد ذراعيه ليتمطى ويفتح عينيه ، فاذا
يا للسعادة خصر عار ، فيقول وهو يتحسسه :

أى شيء هذا يا كيوييد الجميل ! فيتأوه صوت معروف تماما ويقول : يا أجمل البشر وأعزهم ها أنذا ! »

ويستهل كيتس مستنزلا الهام عرائس الشعر التى تنفجر ينابيعها الخالدة من جبل هليكون الذى ألهم هومر من قبل كى يقدر على وصف مشاهد الحب التى تات ذلك العناق :

« يا جبل هليكون العتيق ملهم هومر ! ألا ليتك تم قرق لى جنودلا صغيرا ، يحيى موات هذه الصفحات ، الأسيفة ، كى يحلق شعرى ويتغنى ، فوق هذين العاشقين الرقيقين ، كما تشدو القبرة فوق عش يضم أفراخها الصغار ! ولكن هيهات ، فكل شيء مظلم فوق قممك العتيقة ، وينبوعك الصافى يتصاعدا. أبخرة نحو السماء . أواه ! لقد أقفل حساب الشعراء المقتدرين ، وعرائس الالهام طوت صحائفها . ولم يبق لنا - وقد غربت شمس الشعر ونحن نشاهد هذين العاشقين يعتنقان - إلا أن نبكى لأن القدرة القديمة نضب معينها ، ولم تبق منها باقية جبارة تخط ببراعة خالدة وصف دموعها التى فجرتها أفراس الروح ! »

ويبقى أنديميون من هذا الحلم وقد عرف « جنون الحب » . ويتفكر فى حياته كلها منذ ارتقى وهو فى أوج الصبا عرش الرعاة وعلى رأسه أكليل من الزهر ، فجالت بخاطره تلك القصور البيضاء ، والأصدقاء ، والعذارى الحسان اللواتى كان يحسبهن يومئذ حسانا ، والأغاني الساحرة التى أنشدها الشعراء القدامى متغنين بالأعمال الكبار ، وأحلام العصر الذهبى بين عشائر الرعاة ومهرجان بان العظيم ، وأحزان أخته ، ولكن سرعان ماتتجانب بعيدا عنه رؤى الأرض ، ويصر اليم الجبار

مائلا فوق رأسه . وتبرز أوروبا (الفجر) الوردية متسللة فوق زبد البحر من جهة الشرق . ومرة أخرى يرتحل أنديميون نحوها قدما ، وإذا بنا أمام قطعة من أبدع وأفخم ما يعتز به الشعر الانجليزى .

« والى بعيد طار ، تجواله ، ولا شيء سوى الخلاء المترامى بالزبد المائج فوقه ومن حوله رتحت قدميه ، وسوى أشياء أشد مواتا من تصاوير مورفيوس رب النوم : مراس عتيقة علاها الصدا ، وخوذات ودروع صدر عريضة ، كانت يوما ما لمقاتلى البحر الراحلين ، ودفات فقدت منذ مئات السنين ، ملمس الأيدي البشرية التى وجهتها ، وزهريات ذهبية نقشت فوقها أقاصيص طواها النسيان منذ زمن بعيد .. وهنا وهناك هياكل آدمية ، وهياكل وحوش وتنانين ، وفيلة ونسور ، وفك هائل لوحش لا يعرف له اسم » .

ويصيح أنديميون بالقمر ماذا فيك كى تحرك قلبى بكل هذا العنف ؟ ويبدو فى تجويف من مياه البحر الخضراء شخص شيخ من البشر اسمه جلوكوس يقص عليه حكايته ، وكيف أحب يوما الحسناء سلا فوقع بذلك تحت لعنة سيرس الرهيبة ، وقضى عليه أن يظل ألف عام هائما على وجهه ، وعظامه الهشة محرومة من راحة القبر ، الى أن يلتقى بشاب ذى قوة سماوية اسمه أنديميون ! .. وتتوالى بعد ذلك أعاجيب مدهشة فاذا جلوكوس يرتد الى الشباب وسط عزف سحرى على الناي والربابات والمزاهر . وإذا الحورية سلا تنهض من بين زبد البحر ، ويتركهما أنديميوز لفرحهما القدسى ، ولكن ذلك الاله الذى ولد من جديد يهتف به كى يتبعهما ليقدم واجب التقوى والابتهاال الى نبتون رب البحر العظيم :

« واذا يا للعجب ! فتون العملاق فوق عرشه ،
وقد صيغ كله من الزمرد القاتم ، بيد أنه لا يتجلى
هناك وحده ، في بهائه العظيم : فهناك عن يمينه
وقفت ربة الحب بجناحيها ، وعن يساره جلس المثل
الكامل للجمال مشرقا بالابتسام » .

وبهذا نصل الى الكتاب الرابع من أنديميون
فنلاحظ رغم جمال الشعر أن الأسطورة تتشابك
وتتعدد وتسودها ضبابية تجعل من العسير تتبع
خطها الرئيسي وسط مقطوعات الوصف البياني
البلغ لكل روائع ذلك العالم الخيالي ، فكأننا
نخلق مع « فيبوس » و « أنديميون » مخترقين
الغابات ، وفوق القارات ، ونشاهد أنواع
« الساتير » والتماسيح والفيلة والبراغمة . وفي
هذه الرؤى البديعة يسير أنديميون :

ف فوق مهاد السماء ، متحدثا في اخاء ، الى
القوى العلوية المقدسة ، ومن يده باشتياق عميم ،
تلتقط طيور « جونو » المتكبرة حبات لؤلؤية ،
ويجرب أوتار قوس فيبوس الذهبية ، ويسأله أين
تنبت التفاحات الذهبية » .

ويهبط المساء ، ويبرز القمر ، ثم يبرز في ركابه
عدد من النجوم واحدا بعد الآخر . وتتعاقب هذه
النيرات في موكب سماوى أمام نظر أنديميون ،
فيصنفها وصفا رومانسيا بديعا الى أن يحمله جواده
الى قمة تل أخضر يغلفه الضباب ، فلا يعود يسمع
شيئا من نجوى تلك الاجرام السماوية ، فيهتف
فى أسى :

« لن تحملنى بعد الآن الأصوات الأثرية الى
شاطئ الأعاجيب الغامضة ، أهيم فيها لاهث
الأنفاس مشدوها . وداعا يا أعذب أحلامي ! وان
كان حبي العميم لم يزل متعلقا بك . ولعل ساعة من
الزمن تحين فنلتقى ، فى ملجأ صاف أمين » .

ويأتى ختام القصيدة الضخمة معبرا عن فرح
أنديميون الغامر بطلوع « فيبوس » معبوده العزيز
مرة أخرى ، وهذا يشرح أنديميون مع أخته بيونا
بصحبة فيبوس فى اختراق الغابة ، وقد استولت
على بيونا وهى ما ضية فى العتمة المتجهمة دهشة
مزوجة بالحيرة .